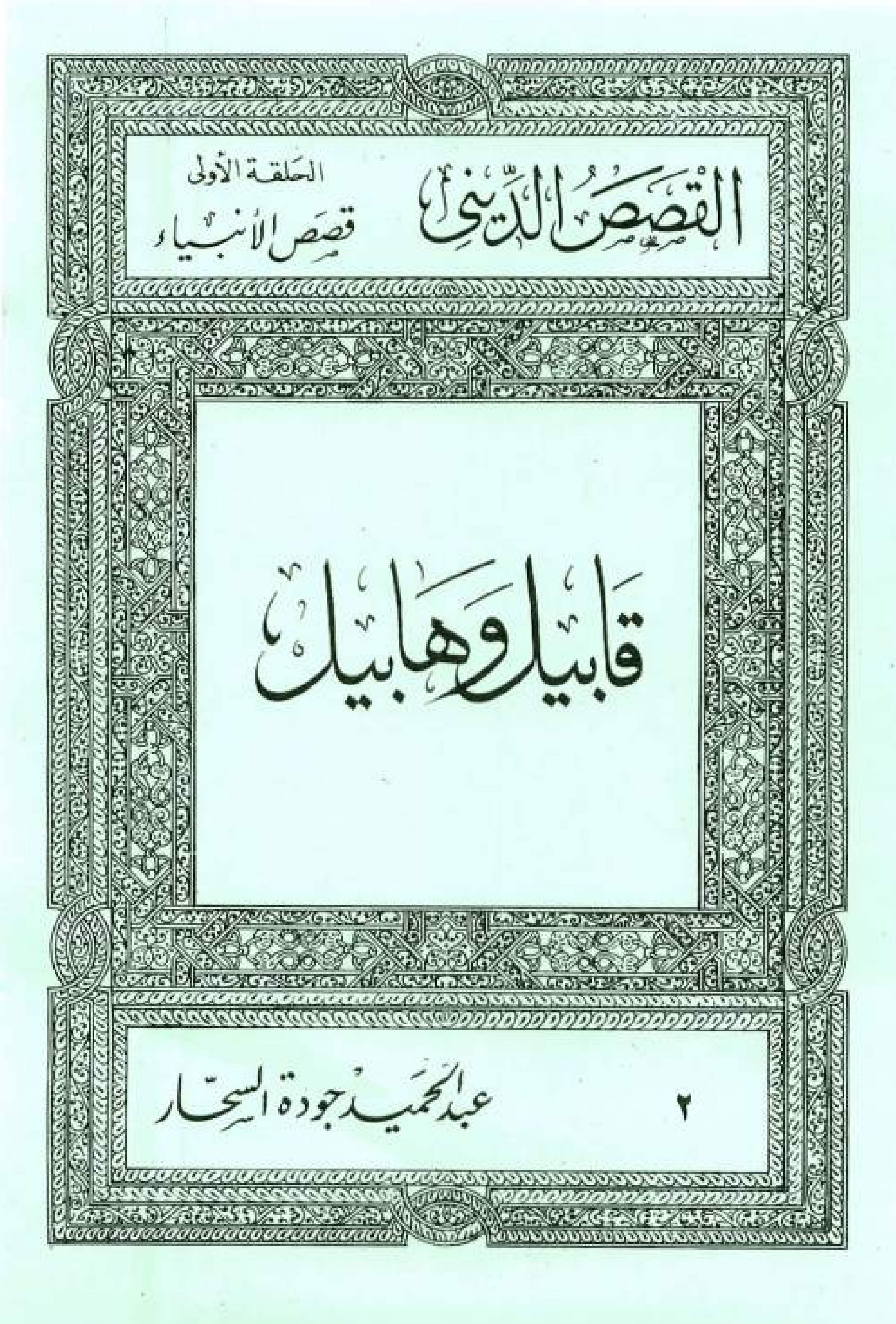


القصص الديني
الحلقة الأولى
قصص الأنبياء
قابيل وهابيل
٢
عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أخذت مكتبة الطفل فى السنوات الأخيرة تنمو وتتسع ، وكان اعتمادها فى جملته على القصص ، وكان جل هذا القصص مترجمًا أو معربًا .

وفى القرآن الكريم قصص رائع جميل ، فلم لا يأخذ مكانه فى مكتبة الطفل ؟ ولم لا تنتفع هذه المكتبة بذلك التراث الجميل ؟

فكرنا فى هذا ، فأخرجنا هذه السلسلة ، ولقد راعينا فيها اعتبارين : الأول : أن تكون النصوص القرآنية هى المصدر الأول لما نكتب ، إذ كنا نعتقد أن للقرآن فى هذه الناحية فكرة تهذيبية معينة . والثانى : أن نحقق السرد الفنى للقصص بما يربى فى الطفل الشعور الدينى ويقوى الحاسة الفنية وينمى الذوق الأدبى .

وهذه السلسلة ، بأجزائها الثمانية عشرة ، هى الحلقة الأولى ؛ وهناك حلقة ثانية وحلقة ثالثة وحلقة رابعة ؛ وأما الحلقة الثانية فهى خاصة بقصص السيرة ـ سيرة الرسول ﷺ . وظهرت فى أربعة وعشرين جزءا ؛ وأما الحلقة الثالثة فهى خاصة بالخلفاء الراشدين وظهرت فى عشرين جزءًا ، وأما الحلقة الرابعة فستعرض صور البطولات الإسلامية فى جميع العصور .

وإننا نتقدم بالشكر إلى حضرة قائد الفرقة الجوية محمد محمد فرج الذى اقترح علينا إخراج هذه الحلقة .

ونرجو الله أن يوفقنا إلى ما فيه الخير ، والله ولى التوفيق .

المؤلف

١

كان آدمُ وحوّاءُ يَعِيشان فى الجَنَّةِ سعيدَين ، لا يَعْرِفان التّعبَ أو الخوف ، ولكنْ لَمّا لَمْ يَسمعا أَمْرَ اللّه ، أَنْزلهما إلى الأرض ، فوجدا الأرضَ مُغطّاةً بالأشجارِ العاليةِ والأعشاب ، ووجدا السِّباعَ والنُّمُورَ والفِيَلَةَ والضِّبَاعَ وجميعَ الوحوشِ تعيشُ فى الأرضِ ، فخافا أن تأْكُلَهُما هذه الوحوش ، فسكنا فى كهفٍ عالٍ ، ولما جاعا لم يَجِدا طعامهما قَريبا سَهْلاً كما كانا يجِدانه فى الجنة ، بل كان على آدمَ أَنْ يبحثَ عن الطعامِ فى وسطِ الغابات والأشجار .

أصبح على آدمَ أن يَتعبَ وأَن يَسيلَ عرقُه ، قبل أن يجِدَ طعامَه ، وأصبحَ على حوّاءَ أن تُعاونَه فى عملِه ، وتُشاركَه فى تعبِه .

وحملت حواءُ ووضَعَتْ طِفْلا سَمَّتْهُ قَابيلَ ، وفرِح آدم بأولِ ولدٍ له ، ووجدَ أنَّ حـواءَ لَنْ تَستطيعَ أن تشاركَه فى عمله ، فقدْ أصبحَ لها عملٌ آخر ؛ هو العنايةُ بالطِّفل . فخرجَ وحدَه يبحثُ عن الطعامِ طولَ النهار ، حتى إذا جاءَ الليل ، عاد إلى الكهفِ يلاعبُ ابنَهُ وهو فرحان .

ومرت سنةٌ أخرى وحَمَلَتْ حوّاءُ ووضَعَت طفلا آخرَ سَمَّتهُ هابيلَ ، واستمرَّ آدمُ فى البحثِ عن الطعام وإحضاره للأُسرَة . التى زادَ عددها .

٢

وكبرَ قابيلُ وهابيل ، وأصبحا شابَّيْن ، فصار عليهما أن يتركا اللّعِب ، وأنْ يَعْملا ليساعدا آدمَ فى

إحضارِ الطعامِ للأُسرةِ الكبيرة ، وفى حمايَتها من السِّباعِ والنُّمورِ والوحوش .

كان قابيلُ أكبرَ من هابيل ، وكان هابيلُ أقوى من أخيه ، وكان قلبُه رقيقًا ونفسُه طيبة ، فكان يحبُّ الحيوانَ ويَعطِفُ عليه .

وأرادَ آدمُ أن يُقَسِّمَ العملَ بين وَلديْه ، فرأى أنْ يُكلِّفَ قابيلَ زراعةَ الأرض ؛ لأنَّ الأرضَ لا تحتاجُ إلى رِقَّةٍ أو حنان قلب ، وأعطى هابيلَ رِعايةَ الأغنامِ والبقر ؛ لأنها تحِسُّ وتتألم ، وتحتاجُ إلى مَنْ يَعطِفُ عليها .

طلعت الشمس ، فخرجَ آدمُ وقابيلُ وهابيلُ مِنَ الكهف ، وذهبَ قابيلُ يجمعُ الثمار ، وذهبَ هابيلُ يرعى الماشية ، ويعطِفُ عليها ولا يؤذيها ، وذهبَ آدمُ يَصْطَادُ بعضَ الطيور ، وينقُلُ الماءَ إلى حواءَ لتُنَظِّفَ أبناءَها .

وكانوا إذا جاء الليل ، عادَ الرجال إلى الكهف ؛ قابيلُ يحمِلُ الفَواكِه ، وهابيلُ يحملُ الألبانَ ، وآدمُ يحمل بعضَ الطيورِ التى اصطادَها ، ثم يُوضَعُ الطعامُ ويقعدُ الجميع يأكلون .

٣

زادتِ الفواكهُ والثمار التى رزق اللّه بها آدمَ وأولادَه ، فأراد آدمُ أن يعلّم ولدَيه الكبيرين كيفَ يشْكُران اللّه على هذه النِّعَم الكثيرة ، فأمَرَهما أن يَذْهَبا إلى قِمَّةِ الجَبل ، وأن يضَعَ كلٌّ مِنهما شيئًا من مَحصولِه ، ليأخُذَه ويأكُلَه أىٌّ من مخلوقاتِ اللّه ، التى لا تعرِفُ تربيةَ الحيوانِ أو زراعةَ الأرض ، فيكونَ هذا زكاةً وقُرْبانًا لله .

ففرِحَ هابيلُ لأَنَّ قلبَه طيِّب . أما قابيلُ فقال فى نفسِه : لماذا أخسَر هذا الذى كَسَبْتُه بالتَّعَبِ

والعَرَق ، فَأتْرُكُهُ وأرمِيه ولا أنتفعُ به ؟! ولكنه لم يقدرْ أن يردَّ على أبيهِ .

٤

ذهب هابيلُ إلى غَنَمِه ، وأَخَذَ يَبْحثُ حتّى وجدَ خروفًا سمينا ؛ كان أحسنَ خروفٍ عِندَه ، فَذَبَحَهُ وهو مسرورٌ لأنه سيقدّمه لله الذى يرزقُهم بالطعامِ والشراب ، أَما قابيل فقد أخذَ يبْحثُ فى الفاكِهةِ والثمار ، ولكنه لم يكنْ يَبحثُ عن أحسنِ ما عندَه ، بلْ كان يبحثُ عن شيء ردىء - لأنه هو نفسُه كان رديئا بخيلا - حتى وجدَ فاكهةً فاسدة .

قدَّم قابيلُ إلى اللّه هَدِيَّته الرَّديئةَ الفاسدة ، وكان قلبُه رديئًا كهديته ، وقدَّم هابيلُ هديتَه التى كانتْ أحسنَ ما عنده ، وكان قلبُه صافيًا نظيفا .

وفى اليـوم التـالى ، ذهبـا ومعهمـا أبوهمـا آدمُ إلى قِمَّةِ الجبل ، فلم يجد هـابيلُ هديَّتـه ، فعـرف أن اللّـه قبلها منه ، أما قابيلُ فوجدَ هديَّته الرديئة كمـا هـى .

ففرِحَ هابيلُ وشكرَ اللّه ، وغضِـبَ قـابيل ، واغتـاظَ من أخيه ، وقال لأَبيهِ وهو غضبان :

ـ إنّما تقَبّلَ اللّه منه ، لأَنّكَ دَعَوْتَ له ، ولَمْ تَـدْعُ لى .

فقال له آدم :

ـ بل تَقَبّلَ اللّه مِنْهُ لأَنّه قَدَّمَ أطيـبَ مـا عِنـده ، وقلبُه صاف . أما أنـت فقَدَّمْـتَ إلى اللّـه أردأَ مـا عندك ، وقلبُك ردىء . إنّ اللّه طيّبٌ لا يحبُّ إلا الطيِّب .

وانصرفَ هـابيل ، ووقـف قـابيلُ ينظرُ إليـه وهـو غضبـان ، ثـم سـارَ خلفَـه وهو مُطـرِقُ الـرأس ، يشــعر

بخِزْى . كان حزينًا لأَنَّ اللّٰه فَضَّلَ أخاه عليه . لم يغضب على نفسه لأَنّه كان رديئا ، بل غضِب على هابيل .

وجاء الشيطانُ وهمسَ فى أذنه : اقتلْ أخاك ، اقتل هابيل .. فرفع قابيلُ رأسَه ونظر ، فرأى أخاه يسيرُ هادئا فَشَعَرَ بضيق ؛ وراح الشيطانُ يقولُ له : اقتلْ هابيل . اقتل هابيل .. فأسرع خلف أخيه ، حتى إذا لحِقَ به ، قال له فى غضب :

- لأَقْتُلَنَّك .

فقال له هابيل فى استغراب :

- لماذا تقتُلنى ؟

- لأنَّ أبى يُحبُّك أكثر مِنِّى ؛ ولأَنَّ اللّٰه فَضَّلَكَ عَلَيَّ .

- إنَّ قَتْلِى لن يُغَيِّرَ شيئًا ، فلنْ يحبَّك أبى لأنك

قَتَلْتَنى ، وسيزداد غضبُ اللّه عليك .

وقبض قابيل على هابيل وهو ثائر ، وقال له :

ـ سأَقتلك لأستريحَ مِنك .

فقال هابيل لأخيه :

ـ لنْ تَعرفَ الراحةَ إذا قَتَلْتَنى .

فقال قابيلُ والغضَبُ يُعميه :

ـ لن أعرفَ الراحةَ حتى أقْتُلَك .

فقال له هابيلُ فى هدوء ، وكان أشَدَّ من أخيه وأقوَى :

ـ ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إلَىّ يَدك لِتَقْتُلنى ، ما أَنا بِباسِطٍ يَدِىَ إلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ، إنّى أخافُ اللّه رَبَّ العالَمين﴾ .

وانصرف هابيلُ فى هدوء ، ووقف قابيلُ وهو ينظر إلى الأرض ، يشعر بِكُرْهٍ شديدٍ لأخيه .

٥

وصل قابيلُ إلى الكهفِ وهو حزين ، وتَمَدَّدَ لينام ، ولكنه لم يَنَمْ ، كان يفكّر فيما حدثَ وهو مُتَضايق ، وجاء الشيطانُ يَهمِس في أذنه : اقتل هابيلَ لِتستريح .. اقتلْ هابيل .. واستمرَّ يستمع إلى الشيطان ، وهو يتقلّبُ في قَلَق ، حتى إذا طلع النهار خرج من الكهف ، وقد عَزَمَ أن يقتل أخاه .

ذهب هابيلُ إلى الأغنام ليعتنيَ بها ، وكان مسرورًا منشرح الصدر ؛ وخرج قابيلُ ليزرعَ الأرض وكان عَبُوسًا مغتاظًا من هابيل . فلما رأى أخاه يس بينَ الغنم هادئا ، زاد غضبه ، وجاء شيطانُه يصيح به ، اقتلْه واسترح . فنظرَ حوله فوجدَ صخرة فحملها وذهبَ إلى أخيه كالمجنون ، وضربه بها

فسقط هابيلُ مقتولا ، وجرى أولُ دمٍ على الأرض .

أفاق قابيلُ إلى نفسِه ، فلما رأى دَمَ أخيه شَعَرَ بِندم، وعرف أنه عمِل عَمَلا فظيعا : قتلَ هابيلَ ولم يفعل هابيلُ ما يستحقُّ عليه القتل .. كان أخوه طيِّبًا فعَمِل الطَّيِّب ، أما هو فكان سيئا وعمِل السَّيِّىء . ولم يعترف بذلك ، بل زاد في رداءتِه وحَسَدَ أخاهُ وقَتَلَه .

ها هو ذا قَتَل أخاه ، فماذا كسب من قتلِه ؟ إنه لم يكسِبْ شيئا ، بل خسر كل شيء . إنه يشعرُ بالخوف ، ويشعر بالحُزن ، ويشعر بالندم ، خَسِرَ الراحة ، وخَسِر الأمن ، وخسر الاطمئنان . إن الريحَ تهُبُّ فيخيَّلُ إليه أنها تصرخ به : قاتل .. قاتل .. والوحوش تزأر في الغابة ، فيتصوَّر أنها تناديه : يا قاتل .. يا قاتل !

إنه خائف ، إنـه يَنْتَفِض ، إن رِجْلَيـه لا تستطيعانِ حَمْلَه ، فسقطَ إلى جوارِ أخيه ، وأخَذ يهُزُّه ويناديه :

ـ هابيل ... هابيل ..

ولكن هابيل بقى ساكنا لا يُجيب ، فقد أصبح جثة فارقتها الحياة .

٦

وقف قابيلُ أمامَ أخيه المقتولِ حائرًا ؛ إنه لا يعـرف ماذا يفعل . مات هابيلُ ولم يَعُد يستطيعُ أن يقومَ أو يمشى ، فماذا يفعل قابيل ؟! أيتركه فى الفضاء للطيور الجارحةِ وللوحوش ؟ فكر ، ولكنه لم يهتَدِ إلى شىء ، وخطَرَ له أن يحمِلَ أخاه ، فتقدَّم وحَمَل جُثَّةَ هابيلَ على ظهْرِه ، وسارَ وهو قَلِقٌ لا يدرى ماذا يفعلُ بالجُثَّة .

واستمرَّ فى سيره حتى تَعِبَ ، فوضَعَ جثة أخيه على الأرض ، وجلس إلى جوارها وهو حزين ، وأخذَ ينظُر إليها ويفكرُ فيما يفعَل ، ويلُوم نفسه على قتل أخيه ، ويتمنَّى لو أنه لم يقتلْه .

حتى إذا استراح ، حَمَلَ أخاه مرة ثانيةً على ظهرِه ، وسارَ به وهو ينتفِض من الغَضب على نفسه ، واستمرَّ فى سيره وهو حيران ، حتى إذا أحسَّ تعبا وضع أخاه على الأرض ، وجلس يستريح .

واستمرَّ يحملُ أخاهُ على ظهرِه ويضعهُ إذا تعب ، ثمَّ يعود ويحملهُ ويدور به فى الفضاء ، وهو حيران لا يدرى كيف الخلاص .

وبينما هو يسير ، إذ رأى غُرابًا حيًّا وبجانِبه غرابٌ ميت ، والغراب الحيُّ يحفِرُ فى الأرض بمنقارِه ورِجْلَيه

حتى حفر حُفْرةً كبيرة ، فجذب الغرابَ الميتَ ووضعه فى الحُفرة ، وغطّاه بالتراب .

فلما رأى قابيلُ ذلك عَجبَ مِن أمرِه ، وقال :

ـ ﴿ يا وَيْلَتَا ! أَعَجَزْتُ أن أكونَ مِثلَ هذا الغراب ، فأُوارِىَ سَوْأَةَ أخى ؟ ﴾ .

وقام وأخذ يحفرُ فى الأرضِ حفرة ، ثم جذبَ أخاه ووضعَه فيها ، وغَطّاه بالتراب .

٧

وأقبل آدم يبحث عنْ وَلَديْه ، فلما رَآهُ قابيلُ قادمًا شَعَرَ بالخوف ، وعَلِم أن أباه لن يغفِرَ له ما فَعَلَه ، فَفَرَّ من وجهه مذعورًا مفزوعا ، فلما رآه آدم يَجرى من وجهه دهِش ، ونظرَ حولَه فرأى دَمَ هابيل ، فدقَّ قلبُه فى شِدَّة ، وانقبض ، فقد عرف أن قابيلَ قتلَ

هابيل ، فحزِن وجَرتْ دموعُهُ علــى خدَّيْـه ، وجرى خلفَ قابيل وهو حانق ، وأخَذ يصيح :

ـ قابيل .. ماذا فعلتَ بأخيك ؟!

وخُيِّلَ لِقابيلَ أن الدنيا كلَّها تصيح به :

ـ قابيل .. ماذا فعلتَ بأخيك ؟

فاستمرَّ يجرى وهو مفزوع ، حتى وصــل إلى حافـةِ الجبل ، فنزل وهـو خـائفٌ يضْطَـرِب ، وآدمُ يصيـح به :

ـ قابيل ! لنْ تعرف الراحةَ أبدا ، لقد فتحتَ علــى نفسِك أبواب الخوف . اذهبْ ، فلا تزالُ مرعوبًــا لا تأمَنُ مَنْ تراه .